الفصل الثاني

دقلديانوس : Diocletian ٢٨٤ ــ ٣٠٥ م

ينتمي دقلديانوس الى مقاطعة دلماشيا Dalmatia التابعة الى اقليم ايللريا . فقد ولد هناك في مدينة صغيرة تدعى سالونا Salona عام ٢٤٥ م .

وكان والداه خادمين عند اسرة نبيلة ، سيدها احد اعضاء مجلس السناتو (*) ويدعى انولينوس Anulinus . وبعد فترة حصل والده على الحرية لأسرته . وحصل الابن دقلديانوس على وظيفة كاتب في الدولة . وبفضل نبوغه وطموحه ، اخذ يتدرج في مناصب الدولة الى ان وصل الى مرتبة عليا ، فقد عين قائد حرس القصر الامبراطوري . وقد ظهرت كفاءته وقابليته العسكرية اثناء حرب فارس . وبعد موت نيوميريان Numerian ٢٨٣ ــ ٢٨٤ م ، عين دقلديانوس خلفا له في منصب الامبراطور نظراً لما كان يتمتع به من مزايا (١٠) .

تنظيماته الادارية واثرها في تقسيم الامبراطورية الرومانية :

وجد الامبراطور الجديد دقلديانوس ان الامبراطورية تواجه مشاكل عديدة نظراً لاتساع رقعتها وسوء ادارتها ، لذا ابتدأ حكمه بالتركيز على تنظيم الجهاز الاداري ، فقام بسلسلة من التعديلات والتشريعات التي من شأنها خلق نظام جديد للادارة

(*) مجلس الشيوخ او مجلس السناتو Senatus : مؤسسة سياسية هامة لها وزنها السياسي في الدولة الرومانية . يرجع تأسيس هذا المجلس الى الملك الاتروسكي (ترقوينيوس القديم) حين امر بتشكيل هذا المجلس وتعيين اعضائه . وكان عددهم حتى مطلع القرن الاول ق . م حوالي (٣٠٠ عضو) يمثلون الاسر النبيلة الكبيرة في المجتمع الروماني . للمزيد من المعلومات راجع : محمد محفل ــ تاريخ الرومان ص ٣٠٨ .

(10) Gibbon, Op. Cit, P.181-2

الامبراطورية باكملها. واول عمل قام به هو فصل النظام الاداري عن النظام العسكري (١١). وفصل الحكومة المركزية عن حكومة الاقاليم، وخضعت كل ادارة لاشراف الامبراطور مباشرة. فاضحى الامبراطور بذلك في قمة سلسلة الوظائف الحكومية (١٢).

وقد رأى دقلديانوس ايضاً ان الامبراطورية التي يهاجمها البرابرة من جهة والفرس من جهة اخرى. واطماع بعض قواد الجيش في السيطرة على السلطة، تتطلب جميعاً وجود قوة عسكرية كبيرة، يسهل انتقالها من موضع الى اخر لقمع تلك الاخطار في مهدها. لذا رأى ان يقسم الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي يحكم كلاً منها امبراطور أو أوغسطس ولكي يضمن انتقال العرش بسلام، وعدم حدوث مشاكل، جعل لكل امبراطور قيصراً يساعده ويكون وريثة من بعد موته (١٣). وقد مضى دقلديانوس في تنفيذ هذا التقسيم. فتولى هو نفسه حكم القسم الشرقي بينما عين صديقه ورفيقه في السلاح مكسيميان (١٤) حاكماً للقسم الغربي. كما اصدر امراً بتعيين كل من جاليريوس قيصراً او نائباً له. بينما عين قسطنطينوس قيصراً للامبراطور مكسيميان (١٥). وتم تقسيم الامبراطورية الى اربع مناطق ادارية الاولى منها هي ايطاليا وعاصمتها ميلان والثانية غالة وعاصمتها تريف الواقعة على نهر الراين والثالثة إلليريا وعاصمتها سرميوم وهي بلغراد الحالية. اما الرابعة منها فهي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطيء الاسيوي للبسفور. وقد اقتسم هؤلاء الحكام الاربعة (الاباطرة ونوابهم) الامبراطورية فيما بينهم (١٦).

ان هذا التقسيم كان ادارياً في طابعة، وقد حدث مع الاحتفاظ بالوحدة النظرية للامبراطورية. وكان الغرض منه تيسير ادارة شؤنها، والدفاع عنها بصورة

---

(11) Runciman, Op. Cit, p. 20

(١٢) العريني، السيد الباز ـــ الامبراطورية البيزنطينية ـــ (القاهرة ـــ ١٩٦٥ م)، ص ٢٨.

(13) Runciman, Op. Cit, p. 21

(١٤) « يقول جيبون في معرض حديثة عن مكسيميان انه ينتمي الى اسرة فلاحية كانت تسكن في اقليم سرميوم. وكان مكسيميان يجهل القراءة والكتابة ولا يكترث للقوانين. الا انه كان متميزاً في فن القتال »، ويبدو ان دقلديانوس عينه في منصب امبراطور للقسم الغربي، نتيجة لصداقته الحميمة له، وامكانية الاعتماد عليه والوثوق به. انتظر : Gibbon, Op. Cit. p. 184.

(15) Gibbon, Op. Cit. pp, 185,6.

(١٦) عاشور، سعيد عبدالفتاح ـــ اوربا العصور الوسطى، ج١ (القاهرة ١٩٧٢ م)، ص ٣٧.

افضل. ان فكرة التقسيم هذه هي في الواقع قديمة جداً، ربما ترجع الى ايام القياصرة الاول حين احسوا بضرورة وجود وزير يوناني واخر لاتيني (١٧). وهكذا فإن سلطة الاباطرة ونوابهم امتدت على الامبراطورية باكملها، وكانت القرارات والاوامر تصدر بأسمهم جميعاً (١٨).

وحينما انتهى عهد الامبراطور رومولوس اجستوليس اخر اباطرة القسم الغربي عام ٤٧٦ م، كانت نظرية وحدة الامبراطورية قائمة دون تغيير. اذ ان الانقسام الاداري قد انتهى وعادت الوحدة القديمة، وانتقلت حقوق الحاكم الغربي من تلقاء نفسها الى الامبراطور في القسطنطينية. وظل الاباطرة البيزنطيون الى اخر تاريخهم يعتبرون انفسهم اباطرة الرومان اجمعين (١٩).

اما فيما يتعلق بالجيش الروماني وتنظيماته، فقد ادخل الامبراطور دقلدياقوس اصلاحات كبرى على نظام الجيش حيث فصل السلطتين المدنية والعسكرية احداهما عن الاخرى. وكان هدفه ان يعد العدة للدفاع عن الحدود، وان يوجد الى جانب حراس الحدود قوة متنقلة يمكنها ان تتوجه لنجدة اية ولاية يهددها خطر الغزو. كما منح القوات الحدودية هبات من الارض يمكن نقلها الى الغير. وكان الابن ملزما بان يأخذ مكان ابيه، اى ان يرثه على الارض وفي المسؤولية كجندي من جنود الحدود (٢٠).

ومن الجدير بالذكر ان دقلدياقوس كان قد اعتمد على الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة في حماية الامبراطورية، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الاربعة (الاباطرة ونوابهم) حتى يكونوا على اهبة السير الى الحدود في اى وقت يطلب منهم ذلك. وليس هناك شك في ان عدد افراد الجيش الروماني ازداد على عهد دقلديانوس، كما اصبح الطريق مفتوحاً امام الجندى ليرتقي ويصبح ضابطاً ثم يتدرج في مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الاعلى للجيش. وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات في هذه الحالة هو ان يكون شجاعاً خيراً يفته مخلصاً للامبراطورية (٢١).

---

(17) Runciman, Op. Cit, p.21.

(18) Gibbon, Op. Cit, pp. 186, 207.

(19) Baynes and Moss, Op. Cit, pp. 30, 34, Vasiliev, Op. Cit, vol.2, p. 408.

(٢٠) بينز ــ الامبراطورية البيزنطينية ــ (تعريب الدكتور حسين مؤنس، طبعة الدار القومية ــ القاهرة) ص ١٧١.

(٢١) عاشور ــ المصدر السابق ــ ج١ ــ ص ٣٩.

اما في مجال المالية والاقتصاد فقد حاول دقلديانوس اصلاح نظام العملة باصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالاضافة الى الدينار البرونزى القديم بعد ان أدخل على وزنه بعض التعديل بما يتفق والنظام الجديد للعملة الذي كان الهدف الاساسي منه هو منع تدهور قيمة العملة الذي ساد في القرن الثالث. ثم اتبع ذلك باصدار قائمة تحدد اسعار السلع الضرورية في انحاء الامبراطورية. وحين قاوم التجار هذه التشريعات حاول تطبيقها بقسوة بالغة، ولكنه فشل ايضاً واختفت السلعة من الاسواق حتى اضطرت الحكومة الى اغفال الامر كلية ولكن دقلديانوس كان اكثر توفيقاً في محاولته اصلاح نظام الضرائب. فحسب منهجه في توحيد نظم الامبراطورية اخضع جميع الولايات لنظام ضرائبي جديد بدلاً من النظم المتعددة المختلفة التي كانت متبعة من قبل. ويتلخص النظام الجديد في ابسط صورة في فرض ضريبة مزدوجة جديدة على الافراد والارض بقدر متساو في كل انحاء الامبراطورية (٢٢).

وفي عام ٣٠٥ م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسون عاماً، بعد ان اصيب بعلل الشيخوخة (٢٣)، وقضى دقلديانوس اعوامه التسعة الاخيرة من عمره معتكفاً عن الحياة العامة. كما أعتزل مكسيميان الحكم ايضاً وفقا لاتفاق سابق بينهما.

---

(22) W. Ensslin, The Reforms of Dicoletian, in Cambridge Ancient History, Vol.x11, p. 383, Runciman, Op. Cit, p. 22.

(23) Gibbon, Op. Cit, p. 209.

ويشير احد المؤرخين الى اعتزال الامبراطور دقلديانوس بقوله « حين رأى الامبراطور ان التعب قد اضنى جسمه بعد ان خدم دولته (٢١) سنة لم يعرف في خلالها معنى للراحة فأعتزل الملك. وتنازل عن هذه العظمة ايثاراً للراحة فجمع الجند ودعا الاهالي ثم سلم امام هذا الجمع الحافل الحلة الملوكية الارجوانية التي كانت شعار ملوك الرومان ». مصطفى صبري — تاريخ الرومان (القاهرة، ١٩١٢) ص ٢٠٤.